ظرفا الزمان والمكان
عند درويش في "حالة حصار"
Adverbs of time and place In Darwish"s literay work "A state of siege"

فضل محمد النمس
جامعة الأقصى – غزة

ملخص: يتناول هذا البحث بالدراسة ظرفي الزمان ، والمكان في الاستخدام اللغوي عند الشاعر محمود درويش في ديوانه الأخير حالة حصار ، ويعرض لأهم السمات التي تميز بها استخدام الشاعر لظرفي الزمان والمكان ، وما ينوب عنهما في حالة حصار .

Abstract: This research deals with studying the adverbs of time and place in the linguistic usage of Mahmoud Darwish's latest literary work " A state of siege".
This study reveals the salient features which characterize the usage of adverbs of time and place in his work " A state of siege".

مقدمة

"حالة حصار" القصيدة الديوان للراحل الكبير محمود درويش ترصد وجع الفلسطيني تحت الحصار لعلها في معظم أوقاته ، ولعلَّ السمة الأبرز في هذا الديوان التي تبرز للقارئ عند الوهلة الأولى ولوع الشاعر في استخدام ظرف الزمان والمكان باختلاف ألفاظه وأنواعه، ولهذا أحببت أنْ ألج حالة حصار درويش لأبحث فيها ظرفي الزمان والمكان، ولا يعني ذلك أنْ أخوض في حالة حصار باحثاً عن كلِّ اسمٍ دالٍّ على الزمان أو المكان دون أنْ يتضمن معنى " في " ليكون ظرفاً.

ولا أتصور من هذا البحث أنْ يقوم بدراسة ظرفي المكان والزمان منفصلين تماماً يقسمهما إلى ظروف متصرفة وغير متصرفة وغير ذلك من التقسيمات الموجودة في كتب

النحو التراثية (انظر شرح المفصل لابن يعيش 41/2 فما بعدها)، فالشاعر في ديوانه حالة حصار لم يفعل أن فصل في الاستخدام الزمان عن المكان ولكنه زاوج بينهما بل لعلهما امتزجا لديه معاً في حالة حصار ! حتى لا تكاد فقرة شعرية تخلو منهما معاً أو من أحدهما يأتي وحده على استحياء.

ولذلك فإنّ هذا البحث سيعرض بعونه تعالى إلى استعمال الشاعر ظرفي الزمان والمكان وما لابسه من معانٍ شعرية ، وإلى أهم الخصائص والسمات التي تميز بها الاستخدام اللغوي لظرفي الزمان والمكان في القصيدة الديوان حالة حصار.

ما استخدمه الشاعر ظرف زمان

الآن:

يستعمل بمعنى الإشارة للوقت الحاضر (انظر بتصرف شرح التسهيل لابن مالك 2 / 219) ، وبهذا المعنى استعمله الشاعر مبنيًّاً في محلّ نصب على الظرفية الزمانية "أربع مرات "، ومنه قول الشاعر:

[إلى الحب:] يا حبُّ ، يا طائر الغيب !
دَعْنا من الأزرقِ الأبديّ وحمَّى الغياب .
تعالَ إلى مطبخي لنُعِدَّ العَشاءَ معاً.
سوف أطهو ، وأنتَ تصبُّ النبيذَ،
وتختارُ ما شئت من أُغنياتٍ تُذَكرنا
بحيادِ المكان وفوضى العواطفِ: إنْ
قيلَ إنَّكَ جنسٌ من الجنِّ ... صدِّقْ !
وإنْ قيلَ إنَّك نوعٌ من الإنفلونزا ...فصدِّقْ !
وحدِّقْ إليكَ ومزِّقْ حجابك .لكنَّك الآن
قرْبي أليفٌ تُقَشِّرُ ثُوماً ، وبعد العشاء
ستختارُ لي فيلماً عاطفيًّاً قديماً،
لنشهدَ كيف غدا البطلان هناك
هنا شاهدينْ (الأعمال الجديدة 230)

حيث استعمل الشاعر " الآن " ظرفاً للإشارة إلى الزمان الحاضر " لكنَّك الآنَ قرْبي أليفٌ تُقَشِّرُ ثُوماً " ، فكم يود الشاعر . رمز الفلسطيني . ألا يعيش في الخيال بل يعاين الواقع ككل البشر لا يرى ما يحب فقط في خياله بل يريده واقعاً يعيش فيه ، يقول للحبِّ دعنا من الأزرق الأبدي وحمى الغياب ، تعال إلى الواقع ، تعال إلى مطبخي لنعدَّ العَشاء ....،ولكنْ مع كل هذا التمني هل يتحقق الأمر ؟ ، بل يختار الحبيبان من الأغاني ! ما يذكر بحياد المكان وفوضى العواطف ، ويتخيل ويصدق أنه نوع من الجن أو نوع من الإنفلونزا ، ويتأمل ! ويمزق الحجاب ، ويريد أن يعود واقعياً أليفاً قرب الحبيبة يعدُّ العشاء ليختار بعده الخيال فيلماً عاطفياً قديماً يظهر فيه البطلان هناك هنا في المكان شاهدين يتحقق ذلك في الخيال القديم هناك وفي الواقع المعاش هنا .

إذا:

استعمل الشاعر " إذا " في حالة حصار ظرفاً لما يستقبل من الزمان تمن معنى الشرط " أربع مرات " ، من ذلك قول الشاعر على لسان أمٍّ لابنها في جنازته:

إذا لم تكنْ مطراً يا حبيبي
فكنْ شجراً
مشبعاً بالخصوبةِ.. كنْ شجرا
وإنْ لم تكن شجراً يا حبيبي
فكنْ حجراً
مشبعاً بالرطوبةِ... كنْ حجرا
..... [هكذا قالت امرأة
لابنها في جنازته] (الأعمال الجديدة 210)

حيث استعمل الشاعر " إذا " ظرف زمان تضمن معنى الشرط ، فالأمُّ توصي ابنها في جنازته أنْ يكون أيَّ شيء يحبُّ ، ولكن ليكن شيئاً مما يغرس في أرض الوطن ، إذا لم تكن مطراً فكنْ شجراً .. إذا لم تكن شجراً كن حجراً ... أيَّ شيء ينغرس في هذه الأرض .

بعد ، وقبل:

استعمل الشاعر "بعد" ظرف زمان "أربع مرات"، و" قبل " مرة واحدة، ومنه قوله:

سيمتدُّ هذا الحصارُ ، حصاريَ المجازيُّ ،
حتى أُعَلِّمَ نفسيَ زهدَ التأمل :
ما قبل نفسي . بكتْ سوسنةْ
وما بعد نفسي . بكتْ سوسنةْ
والمكانُ يحملقُ في عبث الأزمنةْ (الأعمال الجديدة 222)

استعمل الشاعر " قبل " ، و"بعد " منصوبتين على الظرفية الزمانية ، وكأنَّ لهذا الحصار فائدة فهو يمتدُّ كي يُعلِّم الشاعرَ . الذي يرمز للفلسطيني . زهدَ التأمل ، فهذا هو الزمان بقسوته لا جديدَ عليه فلستَ أيُّها الفلسطينيُّ المعذَّبُ الأول والأخير ، فما قبلك بكت سوسنة ، وما بعدك بكت ، والمكان . الوطن . هو المكان يحملق في عبث الأزمنة ، وكأنه يريد في نفسه نصر المكان على الزمان الذي عبث به وقسى عليه .

بين:

تأتي " بين " في لغة العرب ظرف مكان وظرف زمان (انظر شرح التسهيل لابن مالك 232/2) ، وقد استخدمها الشاعر في ديوانه حالة حصار ظرف زمان " مرة واحدة " ، وذلك في قوله:

في الحصار، تكونُ الحياةُ هِيَ الوقتُ
بين تذكُّرِ أَوَّلِها.
ونسيانِ آخرِها. (الأعمال الجديدة لمحمود درويش 180)

حيث استعمل الشاعر " بين " هنا ظرف زمان ، فالحياة في الحصار هي الوقت الواقع في المدة بين تذكر أولها ، ونسيان آخرها ، وكأنَّ المحاصَر يهرب من واقعه كي لا يتذكر واقع الحصار المرِّ فيفرّ إلى أصوله أول حياته فيعيده ذلك إلى التفكير في المحتل مرة أخرى مما يعود بالوبال على المحتل ليكون ذلك بعكس ما أُريد من الحصار أنْ يفعل في المحاصرين .

حين:

الحين: الدهر والوقت ، والمدة المبهمة غير المحددة تصلح لجميع الأزمان طالت أو قَصُرَتْ (انظر في معانيه لسان العرب مادة حين) استعمله الشاعر في ديوانه ظرف زمان

" أربع مرات " .

ومن ذلك قول درويش:

ألشهيدُ يُحذِّرُني : لا تُصَدِّقُ زغاريدَهُنَّ
وصدِّقْ أبي حينَ ينظر في صورتي باكياً : (الأعمال الجديدة 247)

حيث استعمل " حين " ظرف زمان بمعنى " وقت " فالشهيد يحذره لا تصدق زغاريدهن كأنها تعلن فرحهن بذهابي ، فليست هي كلُّ الحقيقة ، بل للحقيقة جانب آخر واقعي يحدث في الخفاء يجب أنْ تصدِّقَه ، يبدو لك ذلك حين " وقتَ " يبكي أبي وهو ينظر في صورتي.

ولعله في موضعين آخرين من استخدامه لظرف الزمان " حين " استعمله بمعنى يقترب من معنى الشرط علَّق به شيئاً على شيء في معنى يقترب من معنى حيثما الشرطية المكانية غير أنه لم يجزم بحين ، ولعلَّ هذا الاستخدام ليس ببعيد من "حين" الزمانية التي قال عنها أهل اللغة هي في الزمان مثل "حيث" في المكان (انظر لسان العرب مادة حين)، وذلك قوله:

نُخَزِّنُ أحزاننا في الجِرار ، لئلا
يراها الجنودُ فيحتفلوا بالحصار .....
فحين تصيرُ الحياةُ طبيعيةً
سوف نحزنُ كالآخرين لأشياءَ شخصيَّةٍ
خبَّأتْها عناوينُ كبرى
فلم ننتبهْ لنزيف الجروح الصغيرة فينا .
غداً حين يشفى المكانُ
نُحِسُّ بأعراضِه الجانبيَّةْ (الأعمال الجديدة 207)

حيث علَّق كوننا سوف نحزن يوماً كالآخرين لأشياء شخصية غير هموم الوطن على حين تصير الحياة طبيعيَّة ننعم فيها بالحرية.

وعلَّق إحساسنا بأعراض الاحتلال الجانبية من أضرار شخصيَّة على حين يشفى المكان . الوطن . من الاحتلال.

صباحاً :

وقد استعملها الشاعر في ديوانه "مرة واحدة " منصوبة على الظرفية الزمانية، وذلك قوله:

نفعلُ ما يفعلُ الصاعدونَ إلي اللهِ :
ننسي الأَلمْ
الألمْ
هُوَ: أن لا تُعلِّق سيِّدةُ البيت حَبْلَ الغسيل
صباحاً، وأنْ تكتفي بنظافةِ هذا العلَمْ . (الأعمال الجديدة 183)

في ظلِّ هذا الحصار ماذا نفعل ؟ لا مجال إلا للصمود والصبر على الألم " نفعل ما يفعل الصاعدون إلى الله ننسى الألم".

استخدم ظرف الزمان المبهم صباحاً ونصبه على الظرفية الزمانية ، فقمة الألم ألا تقوم بأعمالك اليومية الضرورية البديهية بدءاً بصباح يومك لأنك مشغول بما هو أخطر أمور حريتك ووطنك تكتفي بها عما هو من أساسيات حياتك تكتفي بنظافة هذا العلم رمز الحريّة ، والوطن.

عند:

تستعمل " عند في كلام العرب ظرف مكان ، وظرف زمان ، ولذلك قال عنها النحاة تستعمل اسماً لمكان الحضور وزمانه (انظر مغني اللبيب 207).

وقد استعملها الشاعر ست مرات أضاف لها فيها بعض الخصوصية في الاستعمال وذلك استعماله لها وقد لحقتها " ما " وكأنها بمعنى " كلَّما " الزمانية التي فيها معنى الشرط ، وجاء ذلك في ثلاث مرات ، ومنه استعماله " عندما " الزمانية بمعنى الشرط قوله:

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ، تغسِلُ خَدَّ السماء
بأجنحةٍ حُرَّةٍ ، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ
الجوِّ واللَهْو. أَعلى وأَعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. ليت السماءَ حقيقيّةٌ [قال لي رَجَلٌ عابرٌ بينَ

قنبلتين] (الأعمال الجديدة 191)

فقد استعمل "عند" ظرف الزمان ، وزاد بعده "ما" ليكون بمعنى الشرط فعلق به " تطير الحمامات" على " تختفي الطائرات " ، وذلك مثلما حدث مع "كلما".

غداً :

وقد استعمله الشاعر منصوباً على الظرفية الزمانية " مرتين " منها ما يتعرض له البحث عند حديثه عن ظرف الزمان " اليوم " .

كلَّما:

هي منصوبة على الظرفية باتفاق النحاة (مغني اللبيب 266) ، وتأويل ذلك حسب المذهب الأقوى عند النحاة (السابق) أنّ " كلّ " لحقتها " ما " الحرفية المصدرية الظرفيَّة النائبة عن الظرف لا أنَّها ظرف في نفسها ، فجُعِلَ المصدر المؤول المكون من " ما " والفعل في موضع جرّ بالإضافة إلى " كلّ " ، ولإفادة المصدر المؤول الظرفية الزمانية لأنَّ المعنى في مثل قوله تعالى (كلَّما رُزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا) (البقرة 25) : كلَّ وقتِ رزقٍ قالوا (انظر الإتقان في علوم القرآن 220/2)

وقد استعملها الشاعر في ديوانه بهذا المعنى أربع مرات من ذلك قوله عن الأساطير التي هي رمز الاحتلال الذي يقوم في وجوده على الأساطير فيزعم أنه له حقٌّ في فلسطين أرض السمن والعسل استناداً للأساطير والخيال لا إلى الواقع والحجة القوية ، يقول:

ولكنها لا تُغَيِّر حبكتها .
كلَّما وجدت واقعاً لا يلائمها
عدَّلتْه بجرَّافةٍ ،
فالحقيقة جاريةُ النصِّ ، حسناءُ
بيضاءُ ، من غير سوء ... (الأعمال الجديدة 240)

فالاحتلال لا يغير واقعه كالأساطير التي بُنِيَ عليها لا تغير حبكتها كلَّ وقتِ وجودِ واقعٍ لا يلائمها أزالته بالجرافة الآلة الصماء العنيفة القاسية لا بالحوار والحجة لأنَّ أساطير الاحتلال لا حجة لديها بينما الحقيقة تُبين بكل النصوص عن نفسها فهي واضحة تبدو

للناظرين بيضاء من غير سوء .

متى:

استعملها الشاعر اسم استفهام مبنيًّا في محل نصب على الظرفية الزمانية " مرة واحدة"، وذلك في حديثه الآتي عن أمِّ الشهيد حيث تقول:

ثم رقصتُ وغنَّيْت حتى أصبت
بداء الشلل
فمتى ، ينتهي يا حبيبي ، شهرُ العسلْ ؟ (الأعمال الجديدة 214)

منذُ :

من النحاة من اعتبر " منذُ " و " مذ " ظرفين وإنْ وليهما اسم مجرور كما استعملها الشاعر في ديوانه ، وعليه فالاسم المجرور بعدهما مضاف إليه ، ومنهم من اعتبرهما حرفي جر لمجئ الاسم بعدهما مجروراً بهما رأى ذلك ابن مالك في شرح التسهيل(216/2) ،وهو الصحيح عند ابن هشام ، (انظر مغني اللبيب 441) ، أما اعتبارهما ظرفين فذلك إنْ جاءت بعدهما جملة نحو " ما رأيته منذ جاءني " ، أو وليهما اسم مرفوع نحو " ما رأيته منذ يومان " على خلاف في ذلك بين النحاة (انظر المرجعين السابقين) ، ولعله من الممكن اعتبار " منذ " في استعمال الشاعر حرف جر بمعنى " من " لأنه استعملها وبعدها اسم مجرور قاصداً منها بدء الغاية الزمانية ، ولعلني لأجل ذلك أذكرها هنا ، وإنْ كنت أرتاب من جعل " منذُ " مرة حرف جر ، ومرة ظرف زمان ، وأحبذُ لو أنه تم التعامل معها في كلٍّ بمكيال واحد لتكون ظرفاً لبدء الغابة الزمنية ، ولعلني لأجل ذلك أصرُّ على ذكرها هنا .

وقد استعمل الشاعر " منذُ " في ديوانه " ثلاث مرات " ، لبدء الغاية الزمانية ، وجاء بعدها كما تقدَّم باسم مجرور ومن ذلك قول الشاعر:

قال لي كاتبٌ ساخرٌ :
لو عرفتُ النهايةَ ، منذ البداية ،
لم يبقَ لي عملٌ في اللغةْ (الأعمال الجديدة 188)

حيث استعمل الشاعر " منذ " قاصداً بها بدء الغية الزمانية ، وجاء بعدها باسم مجرور " البداية " في حكمة يصوغها كاتب ساخر أنه لو عرف نهاية عمله منذ بدايته له لما كان هناك فائدة من كتابته ، وإنْ كان أمر الأعمال الأدبية كذلك فما بالك بالحياة التي يخطط لها الأعداء من ذا يعرف النهاية ، وهل ستكون كما يخططون أم ينقلب السحر على الساحر !

اليوم:

استعمله الشاعر ظرف زمان " مرة " معرفاً منصوباً " اليوم "، ومرة منكراً منصوباً " يوماً " ومنه قوله:

كُلَّما جاءني الأمسُ، قلت له:
ليس موعدُنا اليومَ، فلتبتعدْ
وتعالَ غداً ! (الأعمال الجديدة 188)

استعمل ظرف الزمان " اليوم " معرفاً بأل مختصاً ويصلح للنصب على الظرفية الزمانية لتضمنه معنى " في " ، ويصلح أنْ يكون خبر " ليس " منصوباً ، لأنَّ اسمها " موعدنا " ليس اسم ذات.

الظروف التي للمكان واستعملها الشاعر للزمان:

بعض الظروف لم تستعملها العرب إلا للمكان أو لعله الغالب في استعمالها اللغوي أنها للمكان وجاءت في استعمال الشاعر للزمان من ذلك :

أمام:

هي من الأسماء التي تستعملها العرب ظروف مكان (انظر شرح التسهيل لابن مالك 2 / 225) ، وقد استعملها الشاعر تصلح أنْ تكون ظرف زمان " مرة واحدة " في قوله:

هنا، عند مُنْحَدَراتِ التلالِ ، أمامَ الغروبِ ،
وفُوَّهَةِ الوقتِ،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلِ،
نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ،

وما يفعل العاطلون عن العمل:
نُرَبِّي الأملْ. (الأعمال الجديدة 177)

فلعلنا نفهم من قوله " أمام الغروب ، وفوهة الوقت " أننا نحن المحاصَرِين هنا في هذا المكان عند منحدرات التلال وكأنَّ الوقت ينحدر مع هذه التلال رمز الوطن إلى هذا الزمان أمام الغروب المتوقع للاحتلال بعد شدة هذا الحصار ، إلى هذا الوقت ماذا نفعل نحن المحاصَرين ؟ ككلِّ السجناء والذين مُنِعوا من العمل نُربِّي الأمل في الحرية ونسعى إليها بكل السبل بعكس الغرض من الحصار الذي يريد أن يدفعنا إلى اليأس والاستسلام .

وبهذا المعنى يكون الشاعر استخدم " أمام " الظرف الذي يستخدم للمكان لإفادة معنى ظرف الزمان ، يساعدنا على هذا الفهم أنه أتبع قوله " أمام الغروب " بقوله " وفوهةِ الوقتِ " فعطف على الغروب " فوهةِ الوقتِ " بالجر مما يعني أنه أراد بالغروب هنا زمانه لا مكانه ولذا عطف عليه الزمان بالجر ليكون أمرنا مع الاحتلال أمام وقت الغروب وفوهة الوقت الذي هو كالبندقية التي تخرج منها الرصاصة لا تعود أبداً إلى أنْ تستقر في مكانها إلى وقت غروب هذا الاحتلال وحرية هذا الوطن .

هنا:

استعملها للزمان " مرة واحدة " ، وسأشير لذلك إنْ شاء الله تعالى عند الحديث عن الإشارة إلى المكان والزمان .

ما استخدمه الشاعر ظرف مكان

أمام:

استعمل الشاعر " أمام " ظرف مكان في حالة حصار " مرتين " ، منها قوله على لسان والد الشهيد يبكيه في لقطة واقعية يحدثه:

كيفَ بدَّلْتَ أدوارَنا ، يا بُنيَّ ،

وسرتَ أمامي ؟

أين:

استعمل الشاعر "أين" اسم استفهام مبنيًّا في محل نصب على الظرفية المكانية " ثلاث مرات " ، منها قوله:

أَلشهيدُ يُحاصرُني كُلَّما عِشْتُ يوماً جديداً
ويسألني: أَين كُنْت ؟
أَعِدْ للقواميس كُلَّ الكلام الذي
كُنْتَ أَهْدَيْتَنِيهِ،
وخفِّفْ عن النائمين طنين الصدى! (الأعمال الجديدة 245)

" أينَ كنت؟ " يسأل الشهيدُ الشاعرَ أين كنتَ من أرض المعركة حين استُشهِدْتُ ؟ وقد حرضتني وحرضت غيري ، وكأنه ما لكلامك عليك أولاً من فائدة ، أعد للقواميس كل كلام قلته وخفف عنا هذا الضجيج .

بين:

تقدم استعمال الشاعر " بين " ظرف زمان ، وقد استعملها أيضاً ظرف مكان " خمس مرات " ، ومنه قوله:

يقيسُ الجنودُ المسافةَ بين الوجود
وبين العَدَمْ (في الديوان القدم ، ولعل هذه أفضل)
بمنظار دبّابةٍ...
نقيسُ المسافَةَ ما بينَ أَجسادنا
والقذائفِ (في الديوان والقذيفة) بالحاسّة السادسةْ.
(الأعمال الجديدة 185، وانظر القصيدة في الشبكة العنكبوتية موقع المؤتمر نت)

استعمل الشاعر " بين " منصوبة على الظرفية المكانية في مقارنة بيننا الشعب الأعزل وبين جنود الاحتلال المدججين بأحدث أنواع الأسلحة ، فهم يقيسون المسافة بين وجودهم

وعدمنا بمنظار دباباتهم ، ونحن نقيس المسافة بين قذائفهم وأجسادنا لا بشيء يكافئ ذلك من الأسلحة ، وإنما بحاستنا السادسة !

تحت:

استعملها الشاعر منصوبة على الظرفية المكانية " ثلاث مرات " ، منها قوله:

لا صديً هوميريّ لشيءٍ .....
هنا جنرالٌ يُنَقِّبُ عن دَوْلَةٍ نائمةْ
تحت أَنقاضِ طُرْوَادَةَ القادمةْ (الأعمال الجديدة 184)

لا صدى عندنا لأي حرب إعلامية يخوضها العدو لتدعم حقه الأسطوري في وجوده على أرضنا ، وإنْ كان هنا جيش العدو يدمر كلَّ شيء في الوطن محاولاً على حدِّ زعمه البحث عن آثار دولته النائمة تحت أنقاضنا في كلِّ حرب قادمة .

حول:

استعمله الشاعر مرة واحدة في حالة حصار منصوباً على الظرفية المكانية مضافاً إلى ياء المتكلم في الحديث عن أم الشهيد في قوله:

مضى الساهرون ولم تبقَ إلا سلالُ
البنفسج حولي . تساءلتُ : أين العروسانِ ؟ (الأعمال الجديدة 214)

وسيأتي تحليل هذا النص كاملاً عند الحديث عن الإشارة للمكان وللزمان .

حيثُ:

استعمل الشاعر " حيث " في محل نصب على الظرفية المكانية " مرة واحدة " ، وذلك قوله:

ألسلامُ انكسارُ السيوف أمامَ الجمالِ
الطبيعيِّ ، حيثُ يَفُلُّ الحديدَ الندى (الأعمال الجديدة 261)

خارجَ ، داخلَ :

استعمل الشاعر كلاً من " خارجَ ، وداخلَ " منصوباً على الظرفية المكانية مرة واحدة

،مع أنّ موقف النحاة من مثل هذه الظروف أنها ظروف مكان مختصة فهي تدلُّ على معنى لا يصلح لكلّ مكان ، ومن ثَمّ إذا قصد بشيء منها معنى الظرفية لازمت لفظ " في " أو ما في معناها ، وما جاء منه عكس ذلك فيحفظ ولا يقاس عليه (انظر شرح التسهيل لابن مالك 2/ 227) وكأنّه علينا أنْ نعيد صياغة قول الشاعر الآتي: لا جماليَّ في خارج حريتي ، وأسمع وقع الخطى في داخلي ، وذلك في قول الشاعر:

الشهيدُ يُعَلِّمني: لا جماليَّ خارجَ حريتي. (الأعمال الجديدة 247)

فالشهيد يعلِّمنا أنْ لا شيء جميل في مكان هو خارج إطار حريته .

ومثله قول الشاعر:

وفي ما تبقَّى من الفجرِ أمشي إلى خارجي
وفي ما تبقَّى من الليل أسمعُ وقعَ الخُطى داخلي (الأعمال الجديدة 250)

حيث استعمل الشاعر " داخلَ " مضافة إلى ياء المتكلم منصوبة على الظرفية المكانية ، ففيما تبقى له من الحرية . والفجر رمزها . يمشي إلى خارج نفسه ! حسب القدر المتاح له من الحرية ، وفيما تبقى له من جبروت الاحتلال وحصاره يسمع وقع الخطى داخلَ نفسه لا يغادرها حسبما فرض عليه الحصار ، والإقامة الجبرية .

ومن الممكن ل" خارج ، وداخل " أنْ يعرب كلٌّ منهما أيضاً إعراباً شاذاً منصوبين على نزع الخافض ، لأنَّ النصب على نزع الخافض أيضاً يسمع ولا يقاس عليه .

خلف:

استعملها الشاعر " خلف " في ديوانه ظرف مكان " ثلاث مرات " ، ومنه قوله:

شَجَرُ السرو، خلف الجنود، مآذنُ
تحمي السماءَ من الانحدار. وخلف سياج
الحديد جنودٌ يبولون . تحت حراسة دبَّابة .
والنهارُ الخريفيُّ يُكْملُ نُزْهَتَهُ الذهبيَّةَ
في شارعٍ واسعٍ كالكنيسة
بعد صلاة الأَحد... (الأعمال الجديدة 194)

حيث استعمل الشاعر " خلف " في هذه الفقرة الشعرية مرتين منصوبة على الظرفية المكانية ، وكأنّ هذه الفقرة الشعرية لوحة رسام يظهر فيها شجر السرو خلف جنود الاحتلال ، وكأنه مآذن، وفيها السماء التي توشك أنْ تنقضَّ على الجنود لا يمنعها من ذلك إلا شجر السرو الذي بَدَا كالمآذن ، وبالرغم من ذلك يبقى خوف الجنود خلف السياج يفعلون كلَّ شيء تحت حراسة دباباتهم حتى في الضروري يبولون تحت حراسة هذه الدبابات .

دون:

تستعمل في لغة العرب ظرفاً ونادراً ما تغادر الظرفية ،(انظر شرح التسهيل لابن مالك 2/ 233 ،234) ، وقد استعملها الشاعر في ديوانه ظرف مكان " مرة واحدة " ، وهي قوله:

حريتي ! عَوِّديني
عليك .خذيني إلى ما وراء المفاهيم كي
نصبح اثنين في واحدٍ !
كيف أحملها ، كيف تحملني ، كيف أَصبح سيِّدها
وأنا عبدها . كيف أجعل حريَّتي حرةً
دونَ أنْ نفترق ؟ (الأعمال الجديدة 220)

عند:

تقدم استعمال الشاعر لها ظرف زمان ، وقد استخدمها ظرف مكان أيضاً " مرّتين " ، ومنه:

هنا، عند مُرْتَفَعات الدُخان، علي دَرَج البيت
لا وَقْتَ للوقتِ ،
نفعلُ ما يفعلُ الصاعدونَ إلي اللهِ :
ننسي الأَلمْ (الأعمال الجديدة 183)

كم يحب الشاعر المكان ، والحديث عن المكان ، وتكراره ، والتفصيل فيه ، فقد أشار للمكان القريب من النفس " هنا " وفسر المكان مؤكدا ومكرراً ظرف المكان بلفظ آخر " عند مرتفعات الدخان ، على درج البيت " في هذا الحصار لا وقت لشيء لا ، بل " لا وقت للوقت " ، فلا مجال إلا للصمود والصبر على الألم " نفعل ما يفعل الصاعدون إلى الله

ننسى الألم " .

فوق:

استعمل الشاعر " فوق " منصوبة على الظرفية المكانية " مرتين " ، منها قوله:

السلامُ حنينُ عَدُوَّيْنِ ، كُلٌّ على حِدَةٍ
للتثاؤبِ فوقَ رصيفِ الضَّجرْ (الأعمال الجديدة 260)

حيث استخدم " فوق " ظرف مكان منصوب في تعبير مجازي ليفيد أنه بعد أن يحسَّ كلٌّ من العدوين بالملل والضجر مما هما فيه يكون توجههما للسلام .

مع:

هي اسم لمكان الاصطحاب أو وقته حسب ما يليق بالمصاحب (انظر شرح التسهيل لابن مالك 238/2 ، انظر مغني اللبيب 439 ، الإتقان في علوم القرآن 246/2) ، وقد استعملها الشاعر في ديوانه منصوبة على الظرفية المكانية " ثلاث مرات " ، ومنه قول الشاعر:

أَيُّها الواقفون علي العَتَبات ادخُلُوا،
واشربوا معَنا القهوةَ العربيَّةَ
[قد تشعرون بأنكمُ بَشَرٌ مثلنا] .
أَيُّها الواقفون علي عتباتِ البيوتِ ،
اُخرجوا من صباحاتنا ،
نطمئنَّ إلي أَننا
بَشَرٌ مثلكُم ! (الأعمال الجديدة 186)

استخدام مع ظرف مكان يدلّ على المصاحبة ،حيث نادى الآخرين المحاصرين المتربصين الواقفين على الحدود على عتبات البيت داعياً إياهم إلى السلام ليشربوا معنا مصاحبينا في مكاننا القهوة العربية محاولين فهمنا ، ليخرجوا من بيوتنا ، وليقتنعوا ولنقتنع أننا وأنهم بشر مثلنا ومثلهم !

نحو:

استعملها الشاعر بمعنى ناحيةَ ، أو جهةَ لتكون ظرف مكان " ثلاث مرات " ، من ذلك قوله:

الأساطير ترفُضُ تَعْديلَ حَبْكَتها
رُبَّما مَسَّها خَلَلٌ طارئٌ
ربما جَنَحَتْ سُفُنٌ نحوَ يابسةٍ
غيرِ مأهولةٍ،
فأصيبَ الخياليُّ بالواقعيِّ، (الأعمال الجديدة 240)

هنا :

استعملها الشاعر ظرف مكان " 23 مرة " ، وسيعرض لها البحث في الحديث عن الإشارة إلى الزمان والمكان .

وراء:

استعمل الشاعر " وراء في ديوانه منصوبة على الظرفية المكانية " مرتين " ، منها قوله:

علي الروح أَن تترجَّلْ
وتمشي علي قَدَمَيْها الحريريّتينِ
إلي جانبي، ويداً بيدٍ، هكذا صاحِبَيْن
قديمين يقتسمانِ الرغيفَ القديم
وكأسَ النبيذِ القديم
لنقطع هذا الطريق معاً
ثم تذهب أَيَّامُنا في اتجاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنْ:
أَنا ما وراءَ الطبيعةِ. أَمَّا هِيَ
فتختار أَن تجلس القرفصاءَ
علي صخرة عاليةْ (الأعمال الجديدة 223)

ف" وراء " فيما وراء الطبيعة منصوبة على الظرفية المكانية ، حيث يتخيل الشاعر الروح شيئاً منفصلاً عن الجسد ، وعليها في ظلِّ هذا الحصار الخانق أنْ تمشي بجواره على

قدميها الحريريتين ، ويداً بيدٍ صاحبين على الحُلوة والمرَّة ! يقتسمان الشدّة والرخاء ، ليقطعا معاً هذا الطريق الذي يرمز إلى المكان وإلى حرية الوطن ثم في نهاية المطاف بعد انقضاء الزمان يذهب كلٌّ منهما في اتجاه مخالف ، الشاعر يقضي إلى ما وراءَ الطبيعة ، والروح لا سيطرة للمحتل المحاصِر عليها فتختار أنْ تبقى في المكان لا تبارح الوطن تختار الحرية فيه لتجلس القرفصاء على صخرة عالية فيه .

وَسَطَ:

استعمل الشاعر " وسط " منصوبة على الظرفية المكانية في موضع واحد هو:

الحصارُ هُوَ الانتظار
هُوَ الانتظارُ علي سُلَّمٍ مائلٍ وَسَطَ العاصفةْ (الأعمال الجديدة 200)

الإشارة إلى المكان والزمان:

استعملت العرب " هنا " في كلامها:

اسماً يشار به للمكان القريب ، نحو (إنا ها هنا قاعدون) (المائدة 24) .

وقد يشار به للزمان اتساعاً ، وخُرِّج عليه: (هنالك تبلو كلُّ نفس ما أسلفت) (يونس 30) (هنالك دعا زكريا ربَّه) (آل عمران 38) (الإتقان في علوم القرآن 254/2)

وقد استعمل الشاعر محمود درويش في ديوانه هذا الأسلوب في الإشارة فأكثر منه ، وأكثرُ استعماله له كان في الإشارة إلى المكان فقد استعمله " 23 مرة " للمكان كما نمثل له لاحقاً ، ولعله لم يستعمله في الإشارة للزمان إلا في مرة واحدة ، وهي قوله:

هنا ، بعد أَشعار " أَيّوبَ " لم ننتظر أَحداً... (الأعمال الجديدة 179)

حيث استعمل الشاعر " هنا " اسماً يُشار به إلى الزمان في موضع نصب على الظرفية الزمانية ليقول:

هنا في هذه الفترة الزمانية من الحصار وشدة الصبر بعد تلاوتنا أشعار أيوب وطول صبرنا لم ننتظر أحداً لرفع هذا الحصار الذي علينا كسره بأنفسنا جميعاً حيث "هنا، لا أنا ... هنا يتذكر آدم صلصاله"

(السابق179)،

ولن يُكسر هذا الحصار "حتى نعلم أعداءنا نماذج من شعرنا الجاهلي " (السابق).

الحروف التي أدخلها الشاعر عليه:

وتدخل على " هنا " في الاستعمال اللغوي عند العرب ثلاثة حروف ستعملها الشاعر في الإشارة ب" هنا " في حالة حصار ، وهي:

أ- " **ها** " **التنبيه:** فنقول " هاهنا " كما في قوله تعالى(اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة 24).

وقد استعمل الشاعر "هنا " تسبقها "ها " التنبيه في حالة حصار مرة واحدة فقط حيث قال:

يَجِدُ الوقتَ للسُخْرِيَةْ:
هاتفي لا يرنُّ
ولا جَرَسُ الباب أيضاً يرنُّ
فكيف تيقَّنتِ من أَنني
لم أكن ههنا ؟ (الأعمال الجديدة 227)

فقد استخدم الشاعر اسم الإشارة للمكان القريب " هنا " التي يعشقها ويكررها كلما حانت له فرصة للإشارة للمكان القريب إلى نفسه ، ولكنه ههنا أرفقها ها التنبيه وكأنه يريد أنْ ينبه به من لم ينتبه من كثرة تكرار الإشارة إلى المكان إلى هذه المكانة .

ب- "كاف الخطاب": وذلك إذا كان المشار إليه بعيداً، فتقول "هناك زينبُ".

وقد استعمل الشاعر " هنا " تليها " كاف الخطاب " في حالة حصار ثلاث مرات للإشارة إلى المكان البعيد من ذلك قوله:

علي طَلَلي يَنْبُتُ الظلُّ أَخضرَ،
والذئبُ يغفو علي شَعْر شاتي
ويحلُمُ مثلي،

ومثلَ الملاكْ
بأنَّ الحياةَ هنا
لا هناكْ... (الأعمال الجديدة 239)

حيث استعمل الشاعر " هنا " دون إضافات فلا سوابق ولا لواحق ، وذلك للإشارة للمكان القريب ، القريب إلى نفسه " الوطن " ، واستعمل " هناك " في نهايتها " كاف الخطاب للإشارة للمكان البعيد الذي هو سوى الوطن ، فالحياة هنا في الوطن ، لا هناك في غيره حلم كلِّ إنسان ، ولكن على طلل الفلسطيني ، على بقايا وطنه ، ينمو الاحتلال ولكليهما . الفلسطيني والمحتلُّ . حلم واحد يحلمانه مثل الملاك بأنّ الحياة هنا في هذا الوطن لا هناك في غيره !

ج- " **اللام** " **الدالة على البعد:** تلحق اسم الإشارة للمكان أو الزمان قبل " كاف الخطاب " إذا كان المكان أو الزمان المشار إليه فيه مبالغة في البعد فتقول " هنالك زينبُ " ، ومنه قوله تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) (آل عمران 38) .

وقد استعمل الشاعر " هنا " تليها " لام البعد " و " كاف الخطاب " في حالة حصار مرة واحدة فقط للدلالة على شدة بعد المكان حيث قال في أحوال والدة الشهيد إثر استشهاده:

قالت الأمُّ : في بادئ الأمرِ لم
أَفهمِ الأمرَ . قالوا تزوَّجَ منذُ
قليلٍ . فزغْردْتُ ، ثم رقصتُ وغنَّيْتُ
حتى الهزيعِ الأخيرِ من الليلِ ، حيثُ
مضى الساهرون ولم تبقَ إلا سلالُ
البنفسج حولي . تساءلتُ : أين العروسانِ ؟
قيل : هنالك فوق السماء ملاكانِ
يستكملان طقوسَ الزواج . فزغردْتُ ،
ثم رقصتُ وغنَّيْت حتى أصبت
بداء الشلل
فمتى ، ينتهي يا حبيبي ، شهرُ العسلْ ؟ (الأعمال الجديدة 214)

مشهد كامل بكل تفصيلاته يدشنه الشاعر هنا لأم الشهيد في لحظة استشهاده يمتزج فيه الزمان بالمكان يفسر فيه زغرودة أم الشهيد فللوهلة الأولى قد يُظن كما يقول الأعداء أنها . الأم الفلسطينية . تفرح بوفاة ولدها أو قتله ولذلك ترسله إلى الموت ، ولكن لا إنه عندها تزوج الأرض تزوج المكان تزوج الوطن عمَّده بدمائه الزكية فزغردت الأمُّ لفرح العريس ورقصت وغنت وطربت كما تفعل كلُّ الأمهات في العالم في يوم زواج أبنائهم ! وبالغت في وقت اختلاط المشاعر الفرح بالحزن ، الزمان بالمكان بالليل بالنهار بالأشخاص الساهرين ثم الاصطدام بالحقيقة حيث في الهزيع الأخير من الليل رحل المواسون المشاركون في عرس الشهيد ولم يبق إلا الأم مع نفسها وسلال البنفسج ، فأين مكان العروسين ولا مكان ، تتساءل الأم الثكلى عن مكانهما فيُقال لها هنالك في السماء ، وإشارة لبعد المكان أشار له ب " هنا " وأتبعها " لام البعد " و " كاف الخطاب " للدلالة على الوحشة بالبعد الشديد للمكان ، فالعروسان ملاكان في السماء يستكملان طقوس الزواج ،تعود الأم لحفلها بوعي ، ومن غير وعي تزغرد وترقص وتغني إلى النهاية الواقعية فينفطر فؤادها حزناً تصاب الأم بالشلل وتتمنى متى ينتهي شهر العسل بعودة حميدة للعروسين !

ما دلَّ على الزمان والمكان دلالة عارضة:

في اللغة العربية أربعة أشياء تعرض دلالتها على اسم الزمان ، أو المكان بمعنى تدلُّ دلالة عارضة أي مؤقتة ، فهي في أصل وضعها في اللغة موضوعة للدلالة على غير الزمان والمكان لكنها قد تدلّ دلالة مؤقتة عليهما ، وهذه الأشياء هي: (انظر بتصرف أوضح المسالك إلى ألفية ابن ملك لابن هشام 2 / 231 ، وشرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري 1 /338)

1- العدد:

العدد في أصل وضعه في اللغة يدلّ على المعدود ، وليس على الزمان ،أو المكان ،ولكنه قد يدلّ دلالة عارضة مؤقتة عليهما ، وذلك إذا وقع تمييزه زماناً ،أو مكاناً ، مثل قولك " سرت عشرين فرسخاً ثلاثين يوماً " ،فالعددان " عشرين ،وثلاثين " كلٌّ منهما مفعولٌ فيه لأنّ الأول عرضت دلالته على الزمان لتميزه به ،والثاني عرضت دلالته على المكان

لتميزه به .

ومنه في استعمال الشاعر العدد "ثلاثين " تعرض دلالته على الزمان ، فينوب عن ظرف الزمان " مرة واحدة " ، وذلك قول الشاعر:

[إلي قاتلٍ آخر:] لو تَرَكْتَ الجنينَ
ثلاثين يوماً،إذاً لتغيَّرتِ الاحتمالاتُ:
قد ينتهي الاحتلالُ ولا يتذكَّرُ ذاك
الرضيعُ زمانَ الحصار،
فيكبر طفلاً معافى ، ويصبح شاباً
ويدرُسُ في معهدٍ واحد مع إحدى بناتكَ
تاريخَ آسيا القديمَ.
وقد يقعان معاً في شِباك الغرام.
وقد يُنْجبان اُبنةً (وتكونُ يهوديَّةً بالولادةِ).
ماذا فَعَلْتَ إذاً ؟
صارت ابنتُكَ الآن أَرملةً،
والحفيدةُ صارت يتيمةْ ؟
فماذا فَعَلْتَ بأُسرتكَ الشاردةْ
وكيف أَصَبْتَ ثلاثَ حمائمَ بالطلقة الواحدةْ ؟ (الأعمال الجديدة 198)

حيث استخدم الشاعر العدد " ثلاثين " تعرض دلالته على الزمان حيث جاء مميزاً بالزمان " يوماً " فناب عنه فانتصب على الظرفية الزمانية .

ومنه في النيابة عن ظرف المكان قول الشاعر:

كتبتُ عن الحبِّ عشرين سطراً
فخُيِّلَ لي
أنَّ هذا الحصارَ تراجع عشرين متراً !.. (الأعمال الجديدة 226)

فالشاعر هنا يتحدث عن الحب والأغنية والحبيبة علّ هذا الحصار يتراجع فيخيل إليه أن هذا الحصار تراجع عشرين متراً ! ليكون العدد " عشرين منصوباً نيابة عن ظرف المكان

لأنه تميز بالمكان " متراً " .

2- ما أفيد به كلية أحدهما أو جزئيته:

ويقصد به إذا أضيف الزمان أو المكان إلى " كل " ،أو بعض ،أو ما أفاد معناهما مما يفيد كلية أحدهما أو جزئيته مثل قولك " سرت كلِّ الفرسخ ،أو بعض الفرسخ ،أو نصف الفرسخ " ، أو " صمت كلَّ الشهر ،أو بعض الشهر ،أو نصف الشهر " ،فكل ذلك مما دلّ دلالة مؤقتة على الزمان أو المكان لإفادة كلية أحدهما أو جزئيته يعرب مفعولاً فيه ،إذا تضمن معنى في باطراد مثل اسمي الزمان ،والمكان .

ومنه استعماله كل في هذا المجال في قول الشاعر:

خسائرُنا: من شهيدين حتى ثمانيةٍ
كُلَّ يومٍ.
وعَشْرَةُ جرحى.
وعشرون بيتاً. (الأعمال الجديدة 206)

حيث جاء ب"كل وقد أضيفت لاسم الزمان " يوم " لتدل دلالة عارضة على الزمان مما جعلها تنوب عنه في الانتصاب على الظرفية الزمانية .

3- ما كان صفةً لأحدهما ثم أنيب عنه بعد حذفه:

حيث تأتي صفة الزمان أو المكان منصوبة على المفعول فيه لكون الصفة عرضت دلالتها على الزمان أو المكان كما مثَّل النحاة له " جلستُ طويلاً من الدهر شرقيَّ الدار " والتقدير: جلست وقتاً طويلاً من الدهر مكاناً شرقيَّ الدار ، ولكنهم حذفوا الموصوف " وقتاً ، ومكاناً " المفعول فيهما للدلالة عليهما بالجار والمجرور "من الدهر " مع الزمان ،وبالوصف بالاتجاه مع المكان " شرقي الدار " ، وأقاموا الصفة " طويلاً ،و شرقيَّ " التي دلَّت هنا دلالة عارضةً على الزمان ،والمكان مقام موصوفها ،وأعربوها بإعرابه ليكون كلٌّ منها مفعولاً فيه. ومنه قول الشاعر:

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ، تغسِلُ خَدَّ السماء بأجنحةٍ حُرَّةٍ ، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ

الجوِّ واللَهْو. أَعلى وأَعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. ليت السماءَ حقيقيّةٌ [قال لي رَجَلٌ عابرٌ بينَ قنبلتين] (الأعمال الجديدة 191)

حيث استعمل الشاعر " أعلى " ظرف مكان وهي في أصل استعمالها اللغوي وصف " أفعل تفضيل " وجاز في أعلى ذلك أنها دلَّت دلالة عارضة على المكان لأنها وصف لمكان أنيبت عنه بعد حذفه ، وتقدير الكلام مكاناً أعلى تطير الحمامات . (كما جاء استعمال أسفل في الآية الكريمة { والركب أسفل منكم } انظر في التعليق على الآية شرح التسهيل لابن مالك 230/2 ، البيان لابن الأنباري 388/1)

ولعلَّ مثله في استعمال الشاعر قوله:

يَقُولُ لها: أَيّ زهرٍ تُحبِّينَهُ
فتقولُ: أحبُّ القُرُنْفُلَ .. أَسودْ
يقول: إلي أَين تمضينَ بي ،
والقرنفلُ أَسودْ ؟
تقول: إلي بُؤرةِ الضوءِ في داخلي
وتقولُ: وأَبْعَدَ ... أَبْعدَ ... أَبْعَدْ (الأعمال الجديدة 229)

حيث استعمل أفعل التفضيل " أبعدَ " مكرّراً ظرف مكان وهو في أصل استعماله وصف ، ولما كان هنا وصفاً لمكان حُذِف ، ودلَّ دلالة عارضةً مؤقتةً عليه فقد أنابه عنه بعد حذفه ، والتقدير: أمضي بك إلى بؤرة الضوء في داخلي ، وأمضي بك مكاناً أبعد .. أبعد ، ولعلّ هذا الحذف أعطى الكلام نوعاً من الاختصار وزيادة مقصودة في الدلالة فكأنه صوت في الفضاء الواسع يتردد في جنباته أبعدَ وأبعدَ .

4- ما كان مخفوضاً بإضافة أحدهما ثم أُنيب عنه بعد حذفه:

حيث يتم في كلام العرب حذف المضاف ،وإقامة المضاف إليه مقامه وإعرابه ،وإذا كان هذا المضاف المحذوف زماناً ،أو مكاناً ،وأقيم المضاف إليه مقامه ،لأنه يدلّ هنا دلالة عارضة على الزمان والمكان ،فيعرب مفعولاً فيه .

والأكثر في المضاف المحذوف أن يكون زماناً ، والأكثر في المضاف إليه الذي يقوم

مقامه أن يكون مصدراً ، ومنه قولهم :

آتيك صلاةَ العصر ،والتقدير : وقتَ صلاةِ العصر ،حيث حذف الزمان المضاف " وقت " ، وأقيم المضاف إليه " صلاة " المصدر مقامه لدلالته دلالة عارضة على الزمان مما جعلهم يعربون المصدر مفعولاً فيه.

ومثله قولهم " آتيك قدوم الحاج " ،و " انتظرتك حلبَ ناقةٍ ،أو نحر جزور " ،والتقدير: مقدار حلب ناقة ،أو مقدار حلب جزور .

وقد يكون النائب عن الوقت المضاف اسم عين كقولهم " لا أكلمه القارظين " ، والتقدير :لا أكلمه مدة غيبة القارظين.(القارظين: اسم فاعل من القرظ ، ويعني الذين يجنون القرظ ،وهو النبات الذي يستخدم في دبغ الجلود ،وكان اثنان من العرب قد خرجوا لذلك فلم يعودوا إلى الأبد ،فضربوا مثلاً ،انظر لسان العرب مادة قرظ)

ومنه مع اسم المكان على قلته " جلستُ قربَ زيدٍ " ،والتقدير: جلست مكانَ قربِ زيدٍ ،ولكنهم حذفوا المضاف " مكان " ،وإقامة المضاف إليه " قرب " مقامه ،وإعرابه بإعرابه أي مفعولاً فيه لدلالته دلالة عارضة على المكان .

وقد استعمل الشاعر " قرب " في حالة حصار " ثلاث مرات " منصوبة نيابة عن ظرف المكان ، ومن ذلك قوله:

يقولُ علي حافَّة الموتِ:
لم يَبْقَ بي مَوْطِئٌ للخسارةِ:
حُرٌّ أَنا قربَ حريتي.
وغدي في يدي....
سوف أَدخُلُ ، عمَّا قليلٍ ، حياتي ،
وأولَدُ حُرّاً بلا أَبَوَيْن ،
وأختارُ لاسمي حروفاً من اللازوردْ... (الأعمال الجديدة 182)

حيث جاء ب" قربَ " منصوبة على الظرفية المكانية ، وتقدير الكلام قبل الحذف حرٌّ أنا مكانَ قربِ حريتي .

ما جرى مجرى ظرف الزمان : (انظر أوضح المسالك 2 / 232،شرح التصريح 1 / 339)

أجرى النحاة مجرى ظرف الزمان ألفاظاً مسموعة عن العرب توسعوا فيها لتضمنها معنى " في " ، فنصبوها على أنها مفعول فيه ،ومنها قولهم :

" أحقاً أنَّك ذاهبٌ ؟ " حيث " حقاً " مفعولٌ فيه منصوب على الظرفية الزمانية المجازية ، متعلق بمحذوف خبر مقدم ،والمصدر المؤول المكون من " أنَّ " وما دخلت عليه مبتدأ مؤخر؛هذا مذهب سيبويه ، وعليه جمهور النحاة ؛ إذ أصل الكلام عندهم :أفي حقٍّ ذهابُك ،قالوا وقد صرح بذلك العرب في مثل قولهم:

أفي الحقِّ أنِّي مغرَمٌ بكِ هائمٌ وأنَّكِ لا خَلٌّ هواكِ ،ولا خمرُ

الشاهد فيه (أفي الحق)

حيث صرح الشاعر بفي مع المصدر " الحق " مما يعني عندهم تضمنه معنى " في " ،ولذلك أجروه مجرى ظرف الزمان ،فأعرب بإعرابه .

وذهب المبرد ووافقه ابن مالك على أنّ " حقاً " مصدر باقٍ على مصدريَّته ،وأنّه جيء به بدلاً من اللفظ بفعله ،وهو عندهم مفعول مطلق ، والمصدر المكون من " أنّ " ، وما دخلت عليه فاعل المصدر ،وذلك في قولهم " أحقاً أنك ذاهب ؟ " .(انظر شرح التصريح339/1)

ومثله قولهم " غيرَ شكٍ أنّك قائمٌ " ،و " جهدَ رأيي أنّك قائمٌ " ،و " ظناً مني أنّك قائمٌ " ، فكلها تجري مجرى ظرف الزمان .

ولعلَّ مما يمكن إجراؤه مجرى ظرف الزمان مما جاء في حالة حصار ، قول الشاعر:

الوميضُ، البصيرةُ، والبرقُ
قَيْدَ التَشَابُهِ...
عمَّا قليلٍ سأعرفُ إنْ كان هذا
هو الوحيُ...
أو يعرف الأصدقاءُ الحميمون

أنَّ القصيدةَ مَرَّتْ،
وأَوْدَتْ بشاعرها .... (الأعمال الجديدة 192)

فقوله "قيد التشابه" هذا اللفظ ليس زماناً ولكنه تضمن معنى " في" لذلك يعامل معاملة الزمان كالأسماء التي جرت مجرى ظرف الزمان حقاً وجهد رأيي وغيرها فالوميض مبتدأ والبصيرة عطف بيان عليه ، والبرق عطف نسق ، وقيد ظرف زمان منصوب توسعاً يتعلق بمحذوف خبر لأنه جرى مجرى الزمان بتضمنه معنى " في" ، فالوميض ، والبصيرة ، والبرق في قيد التشابه ، وهو تعبير يشبه قولك: البناء قيدَ الإنشاء ، والشيء قيدَ الاستخدام .

ومنه استعماله كلمة " مرة " مثناة " مرة واحدة " ، ومفردة " مرة أخرى " في مثل قوله:

هل نسيء إلى أحدٍ ؟ هل نسيء إلى
بلدٍ ، لو أصبنا ولو من بعيد ،
ولو مرَّةً ، برذاذ الفرحْ ؟ (الأعمال الجديدة 200)

حيث جاء ب" مرة " تتضمن معنى " في " لتجري مجرى ظرف الزمان .

التوسع في ظرف الزمان ، والمكان:

تتوسع العرب بشروط عدَّدها النحاة (انظر همع الهوامع في شرح جمع الحوامع للسيوطي تحقيق أحمد شمس الدين 123/2 فما بعدها) في استخدام ظرفي الزمان ، والمكان ، وذلك بجعلهما مجازاً فاعلاً ، ومفعولاً به ، فيجوز حينئذٍ الإضافة إليهما على معنى الفاعلية ، أوالمفعولية ، ومن النحاة مَنْ جعل إضافة الظرف إلى المصدر تعني أنه على جعله مفعولاً به توسعاً (انظر شرح المفصل لابن يعيش 2/ 46) ، ويجوز الإسناد إليهما ، وبذلك قد يدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي إذا ظهر أنّ المتكلم أسند الفعل أو ما في معناه ليس إلى فاعله الحقيقي ، وإنما إلى الزمان أو المكان أو .... (انظر في ذلك دلائل الإعجاز للجرجاني 293 فما بعدها ، وأسرار البلاغة للجرجاني 320 فما بعدها ، وعلم البيان لعبد العزيز عتيق 142 فما بعدها)

فالإضافة على معنى الفاعلية مثل { بل مكرُ الليلِ والنهارِ } (سبأ 33) ، فقد جعل الليل والنهار ماكران وليسا كذلك بل المكر يحدث فيهما ، وهذا يُدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي .

والإضافة على معنى المفعولية قوله تعالى (للذينَ يُؤلونَ منْ نسائِهم تَرَبُّصُ أربعةِ أشهرٍ } (البقرة 226) ، فجعل ظرف الزمان " أربعة أشهر " يقع عليه فعل التربص ، وأضافه إلى مصدره ، والتربص لا يقع على " أربعة أشهر " وإنما فيها .

والإسناد إلى الظرف في المعنى مثل قوله تعالى { مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ } (سورة إبراهيم 18) حيث أسند الوصف عاصف إلى يوم وضمير اليوم فاعل اسم الفاعل عاصف ، وليس الأمر كذلك ، بل العاصف الريح ، والعصف يتمُّ في اليوم ، وهذا يدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي .

وإذا ثبت من كلامهم التوسع بجعل الظرف المتصرف فاعلاً ومفعولاً به ، ومضافاً إليه على معنى الفاعلية ، والمفعولية لزم من ذلك جواز الحكم عليه في حال النصب بأنَّه مفعول به تجوُّزاً ما لم يمنع من ذلك مانع ، تقول " صمتُ اليومَ " فإذا جعلت اليوم مفعولاً به توسعاً ، وقدَّمتَه على فعله قلت: اليومُ صمته ، وإنْ جعلته ظرفاً قلتَ: اليومُ صمتُ فيه . (انظر بتصرف شرح التسهيل لابن مالك 244/2)

ومن هذا التوسع في حالة حصار قول درويش:

بلادٌ علي أُهْبَةِ الفجر،
صرنا أقلَّ ذكاءً ،
لأَنَّا نُحَمْلِقُ في ساعة النصر:
لا لَيْلَ في ليلنا المتلألئ بالمدفعيَّة
أعداؤنا يسهرون ،
وأعداؤنا يُشعلون لنا النورَ
في حلكةِ الأقبيةْ. (الأعمال الجديدة 178)

" بلادٌ علي أُهْبَةِ الفجر، " هذا المقطع الذي كرره الشاعر حوالي أربع مرات في فقرات شعرية مختلفة من ديوانه حالة حصار يعني أنه:

بلادٌ في مكانٍ الفجرُ فيه يتأهبُ يستعدُّ (انظر في معاني أهبة مادة أهب في لسان العرب) ،وقد أضاف الشاعر المصدر " أهبة " لظرف الزمان المختص " الفجر " الذي يعني الوقت بعد حلكة الليل ، حلكة الاحتلال ، ليفيد هذا الوقت بكل إيحاءاته من الانتظار

بعد العتمة الطويلة ، والظلم ، والتخبط ، والاستعباد معنى الحرية بإطلاقها ، ونورها ، ووضوحها ، وتمامها.

وهذه الإضافة تدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي ، إذ إنَّ الشاعر جعل إضافة المصدر " أهبة " لظرف الزمان " الفجر " على معنى الفاعلية ، فالفجر هو فاعل التأهب بما يرمز إليه من حرية فالفجر يتأهب بمعنى الحرية تتأهب ، وليس الأمر كذلك على جهة الحقيقة ، وإنما الذي يتأهب هم المناضلون الذين يسعون لفجر الحرية !

ومنه أيضاً قول الشاعر:

فحين تصيرُ الحياةُ طبيعيةً
سوف نحزنُ كالآخرين لأشياءَ شخصيَّةٍ
خبَّأتْها عناوينُ كبرى
فلم ننتبهْ لنزيف الجروح الصغيرة فينا .
غداً حين يشفى المكانُ
نُحِسُّ بأعراضِه الجانبيَّةْ (الأعمال الجديدة 207)

" يشفى المكان " أسند الفعل " يشفى " للمكان ، فجعله فاعله ، وليس المكان الذي يشفى وإنما تشفى جراحات الذين يعيشون فيه ، وهذا أدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي علاقته المكانية .

الخاتمة:

لعلَّنا مازلنا ندور في أحجية الزمان والمكان عند الشاعر محمود درويش في حالة حصار ليتضح لنا أنَّ :

السمات البارزة لاستعمال ظرف الزمان والمكان عند درويش "في حالة حصار":

1- كثرة استعمال الإشارة إلى المكان كما مضى من خلال الحديث عنه في موضعه حتى إنه في موضع واحد كرر " هنا " خمس مرات في قوله:

واقفــون هنــا . قاعــدون هنــا . دائمــون هنــا . خالــدون هنــا. خالدون هنا . ولنا هدف واحدٌ واحدٌ:

أن نكون. (الأعمال الجديدة 216)

2- المزاوجة والمزج في استعمال ظرفي الزمان والمكان ، ولعلَّ خير مثال على ذلك قول الشاعر:

هنا، عند مُنْحَدَراتِ التلالِ ، أمامَ الغروبِ ،
وفُوَّهَةِ الوقتِ،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلِ،
نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ،
وما يفعل العاطلون عن العمل:
نُرَبِّي الأملْ. (الأعمال الجديدة 177)

3- فالشاعر هنا يزاوج في الاستخدام بين المكان "هنا عند منحدرات التلال ... قرب بساتين مقطوعة الظل " ، والزمان " أمام الغروب ، وفوهة الوقت " ويمزج بينهما حتى كأنَّ المكان عنده مقدم على الزمان ، ولذلك بدأ به ، بل لكأنَّ المكان والزمان بجبروتهما ، والفلسطينيُّ محاصرٌ بهما ، يفعل في هذا الحصار ما يفعل السجناءُ ، يربي الأمل في الحرية !

4- كثرة استعمال أسماء الزمان والمكان لمعانٍ نحوية أخرى تخرج فيها عن النصب على الظرفية الزمانية والمكانية ، ولعلَّ من ذلك على سبيل المثال:

ألحياة .
الحياة بكاملها ،
الحياةُ بنقصانها ،
تستضيفُ نجوماً مجاورةً
لا زمانَ لها .....
وغيوماً مهاجرةً
لا مكانَ لها .
والحياةُ هنا .
تتساءلُ:

" لا زمانَ ، لا مكانَ " كلٌّ من الزمان ، والمكان خرج عن الظرفية الزمانية المكانية ليكون في معنى نحويٍّ آخر هو اسم " لا " النافية للجنس ، ففي هذه الفقرة الشعرية :

الحياة هنا في ظل الحصار تستضيف نجوما مجاورة لا زمان لها وغيوما مهاجرة لا مكان لها ، فكأنه هنا في هذا الحصار توقف المكان والزمان ، ولم يبق للحياة مع الإشارة لهذا المكان " هنا " في حالة حصار إلا أنْ تتساءل كيف نعيد إليها الحياة !

5- استعمال بعض ظروف المكان المختصة منصوبة على الظرفية المكانية مثل " خارج ، وداخل " والتي إذا أريد بها معنى الظرفية المكانية عند النحاة استعملوا لها حرف الجر " في " ، ولم ينصبوها إلا سماعاً . (انظر ذلك في موضعه من البحث)

6- استعمال بعض الظروف التي كثر استعمالها للمكان ظروف زمان مثلما حدث مع " أمام الغروب " ، ومع " هنا " . (انظر ذلك في موضعه من البحث)

7- استعمال أسماء ليست للزمان وليست للمكان عرضت دلالتها على أحدهما ، (وقد تم الحديث عنه في موضعه من البحث)

8- استعمال بعض الأسماء جرت مجرى ظرف الزمان في الاستعمال . (تم الحديث عنه في موضعه من البحث)

9- استعمال بعض الظروف بمعنى أدوات الشرط مثل عندما وحينما و كلما . (انظر ذلك في موضعه من البحث)

10- التوسع في استعمال الظرف على معنى الفاعلية والمفعولية ليدخل في المجاز .(وقد تمَّ الحديث عن ذلك في موضعه)

المصادر والمراجع

. الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إباهيم ، القاهرة ، دار التراث ، د. ت ، د. ط .

ـ أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني ،صححها على نخة محمد عبده / محمد رضا ، بيروت ، دار المعرفة ، ط 1982م .

. الأعمال الجديدة: محمود درويش، بيروت ،رياض الريس للكتب والنشر، ط 1 ، 2004م.

. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ابن هشام الأنصاري ،تحقيق محمد عبد الحميد ، دار الفكر للطباعة والنشر ،ط 6 ، 1974م .

. البيان في غريب إعراب القرآن : أبو البركات بن الأنباري ، تحقيق د. طه طه ، وزميله ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 1980م .

. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود شاكر ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ط 2 ، 1989م .

. شرح التسهيل: ابن مالك ، تحقيق : د. عبد الرحمن السيد ، زميله، القاهرة ، هجر للطباعة والنشر، ط 1 ، 1990م .

. شرح التصريح على التوضيح: خالد الأزهري ، دار الفكر ، د. ت ، د. ط .

. شرح المفصل: ابن يعيش ، القاهرة ، مكتبة المتنبي ، د. ت ، د. ط .

. علم البيان: د. عبد العزيز عتيق ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ط 1974م .

. لسان العرب : ابن منظور ، القاهرة ، دار المعارف ، د. ت ، د. ط .

. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ابن هشام الأنصاري ، تحقيق د. مازن المبارك ، وزميله ، بيروت ، دار الفكر ، ط5 ، 1979م .

. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع : جلال الدين السيوطي ، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1998م .